رواية «اللاز» لطاهر وطار

مراجعة : د. يوسف الصميلي

الثورة الجزائرية بين جسامة التضحيات وحتمية الاستمرار : هذه خلاصة الحقيقة التي يخرج بها القارىء بعد أن يعيش مع رواية « اللاّز » ، للكاتب الجزائري - طاهر وطّار .

إن بداية الرواية تقف بنا أمام مشكلة حاضرة هي قضية قدماء المجاهدين ، لتعود الذكريات بعد ذلك إلى الوراء قاصةً علينا الأحداث التي أدّت إلى هذه المشكلة .

وقضية قدماء المجاهدين ليست هدف القصة ، وإنما هي بدايتها من خلال مشهد عادي أصبح مألوفاً لجماعة من قدماء المجاهدين وذوي الشهداء أمام شباك المنح ، يتأملون ماضيهم التعيس وأيامهم البائسة ، ويدعون لشهدائهم بالرحمة ، في الوقت الذي يشعرون فيه بضآلة وجودهم ، وبأنانيتهم الطاغية ، لأنهم ارتضوا - على حد تعبير الشيخ الربيعي - « أن يتحول شهداؤنا الأعزاء إلى مجرّد بطاقات في جيوبنا ، نستظهرها أمام مكتب المنح مرة كل ثلاثة أشهر ، ثم نطويها مع دريهمات معدودة في انتظار المنحة القادمة »(١) .

كأن هذا القول إشارة إلى أن هؤلاء المجاهدين ، لديهم الإحساس بأن طاقتهم لم تتبدّد بعد ، وأن بمقدورهم إفادة الوطن في مرحلة البناء ، بنفس الاستعداد الذي أفادوه إياه في مرحلة التحرير ، وأن هناك مجالات أخرى لتكريمهم غير هذه البطاقات البالية ، التي تمكّنهم من صرف مستحقاتهم على ما قدّموه هم أو ذووهم في الماضي ، إضافة إلى ذلك ، فإن بعض هؤلاء شاهد صارخ على جسامة التضحيات من جهة ووحشية الاستعمار من جهة أخرى ، فهذا اللاّز يهذي ، ويهذي ، دون أن يعرف أحد ماذا يريد ، ودون أن يستطيع التعبير عما يختلج في أعماقه من انفعالات ، إنه في حالة هذيان دائم منذ أن أُعدم والده أمام ناظريه ، دون أن يعي فعلاً حقيقة الأسباب التي قادته إلى هذا المصير المحتوم .

إن هذه البداية للقصة مجرّد إشارة ، ومنطلق للتأمل وتداعي الأفكار التي تنقلنا الى مرحلة ماضية وعصيبة من عمر الجزائر ، كانت فيها التضحيات جسيمة ، بحجم الأهداف النبيلة التي سعت إليها الثورة .

الجو العام

إن الجو العام للرواية هو ثورة التحرير ، وأشخاصها هم الثائرون على اختلاف دوافعهم ، وتباين الأسباب التي أدَّت بهم إلى الالتحاق بالثورة من جهة ، والاستعمار الفرنسي ومن معه من جهة أخرى . وأحداثها ، تتمثّل في

ذلك الصراع المحتدم والعنيف بين الثورة وبين الاحتلال البغيض، مع ما يرافق هذا الصراع الدموي، من صراع نفسي عنيف داخل الشخصيات من كلا الجانبين، حول أحقية كل فريق بالموقف الذي هو فيه؛ إلى أن ينتهي الصراع بانتصار الثورة، بعد أن دخلت مأساة الاستعمار كل بيت، وأصابت شظايا نيرانه كل أسرة. مع إيحاء عام بأن الثورة ما زالت مستمرة، وإن اختلفت أدوات الصراع ووسائله في مرحلة الاستقلال عما كانت عليه في مرحلة التحرير.

وإذا كان البناء الفني قائماً على تداعي الأفكار، فإن أبرز الذكريات في خواطر الشخصيات هي تلك العلاقات المحظورة اجتماعياً، والتي كان لكل واحد فيها نصيب؛ فكأنها علاقات تشبّثت بناصية الأذهان، وعشّشت في أعماق النفوس، لتنصهر في بوتقة الحقيقة وتفجر بركان الخلاص: «كان الجو أشبه ما يكون بالمرآة قبل أن تسقط وتتهشم، تبدو صافية لامعة ولو كانت بها عشرات الخدوش، والوجود الاستعماري لا يستشعره أحد إلاّ كما يستشعر مريض داءً مزمناً، لولا أزماته من حين لآخر، لتوهّم، بل لاعتقد سلامته، فثمانية مايو لم يعد إلاّ يوماً يُعلن فيه الحداد»[٢].

مسرح الصراع

إن هذا الواقع الهش، قائم على تزييف الحقائق، وتضليل المواطنين، ومسرح الصراع في خضمّ هذا الواقع قرية جزائرية صغيرة، ما زالت على بساطتها البدائية، ساجدة للجبال كما تركها الأقدمون، متأملة الجمال في كآبة؛ والفرنسيون يصرّون على أنها فرنسية، وأن سكانها الجزائريين فرنسيون، وقد مضى على هذه الأكذوبة أكثر من قرن من الزمان، والقرية (الجزائر) هي - هي؛ كل شيء فيها يوحي بالتباين عن فرنسا: موقعها، وسحنة أهلها، وأسماؤهم، وشعائرهم الدينية، وعلاقاتهم الاجتماعية، والقيم التي يتمسكون بها، والأعمال التي يمارسونها؛ كلها تعبير عن التباين المطلق بين الاستعمار وبين المواطنين. والهدوء الذي يشوب شوارعها، والسكون الذي يسيطر على جنباتها، والرتابة التي تطبع سلوك أهاليها، إنما هي نذير مكتوم يسبق العاصفة المدمّرة التي ستزلزل كل ثابت وتزعزع كل هادىء.

العرض الوصفي للرواية:

الناس يحيون حياتهم العادية: **فالشيخ الربيعي** مثلاً في متجره، يمنّي النفس بمزيد من الكسب، وابنه **قدّور** يمنّي القلب بجارته زينة، **وحمُّو** يتابع عمله المرهق في الحمّام بين لفح النار وأذى الدخان، **والشامبيط** (وكيل الحكومة) يرصد حركات السكان وسكناتهم ليقدّم تقريره اليومي إلى الضابط الفرنسي، **واللاّز** يتصدّى للمارة، فيضرب هذا ويشاكس ذاك، وزيدان منهمك بالسياسة وإقناع الناس بالتصويت إلى جانبه في الانتخابات، دون أن يلتفت إلى أسرته أو يهتم بشؤونها، تاركاً لأخيه **حمُّو** أمر تدبير غذائها من أجره الزهيد، **والضابط الفرنسي** باسط سيطرته على الجميع، وناعم بالأمن والطمأنينة.

إذا كانت هذه هي الصورة الظاهرة المألوفة، فإن ما وراءها يناقضها تماماً، وإن كان يزيدها قتامة ليلقي بعد ذلك على الثورة مزيداً من الوضوح. إن ما وراءها كل ما هو محظور اجتماعياً وغير مألوف في المجتمع، ولهذا فهو سرٌّ مكنون في صدور أصحابه وعبء ثقيل على نفوسهم لا يستطيعون البوح به ولا يجرؤون على الالماح إليه، ومن هنا كان ثباته بالذاكرة وتشبثه بناصيات الأذهان.

فقدُّور يبيت في مخدع زينة حتى الصباح. إنه يدخل حجرتها بعد أن ينام الجميع، ولا يخرج منها إلاّ بعد أن توقن بأن والدها ذهب إلى المسجد لصلاة الفجر.

وحمُّو لا يكاد ينتهي من عمله اليومي الشاق بين التراب والدخان والنار، حتى يجد نفسه أسير عمل آخر، بقدر ما يجد فيه المتعة، بقدر ما يشعر باستنزاف قواه وانهداد جسمه؛ فبنات صاحب الحمّام الثلاث يجدن فيه الشاب الذي لا يلفت إليهن أنظار الناس، فيتداورن على ممارسة الحب معه في كل مكان من مملكتهن الصغيرة، في كهفه الخانق وفي بيت المؤونة الضيّق، وفي الحجرة التي ينمن فيها؛ وليت الأمر اقتصر على هذا التبديد للطاقة

الجسدية، إذن لسهل الوضع على حمّو، ولكن مصيبة المصائب أن صغراهن (خوخة). وأقربهن إلى قلبه، قد أنجبت منه طفلاً جميلاً خنقته وأرسلته له مع أختها. فقبّله وقذف به في النار. أليس في هذا ما يحطّم كيانه، ويجتث جذور الحياة من أعماقه؟!

وزيدان! هل ينسى تلك اللحظة التي أسلمته فيها الظروف إلى مضاجعة مريم - بنت عمه. التي أنجبت اللاّز، ثمرة غير شرعية، نتيجة لتلك المضاجعة.

ثم العلاقة بين اللاّز والضابط الفرنسي. لا أحد يعرف سرّها لأنها علاقة غير طبيعية. بل هي شاذة، والاثنان يعرفان هذا، والاثنان يمارسانها. وإذا كانت تعبّر عن الفوقية في مظهرها الخارجي من قبل الضابط تجاه اللاّز، فإن حقيقتها الخفية، هي أن اللاّز دائماً من فوق. وإن كان هو المستنزف، تعبيراً عن شذوذ العلاقة نفسها بين فرنسا والجزائر.

شخصيات الرواية

بعد هذا العرض الوصفي لوجهي الصورة، فإن التحليل يفرض علينا إلقاء مزيد من الضوء على اللاّز - **الرواية، والثورة، والشعب، والإنسان وعلى غيره من شخصيات الرواية.**

- اللاّز

شاب جزائري لقيط، منبوذ اجتماعياً، عنيد، متمرّد على الجميع، لا يعرف الهدوء ولا يستكين للراحة. تتابعه النظرات بازدراء مشوب بالحذر، ويتمنّى أكثر الناس الموت له خلاصاً من صخبه ونجاةً من شروره. وكثيرة هي المرات التي دخل فيها السجن بسبب شغبه. وكان يُظنّ في كل مرة أنها النهاية، فهذا الشيخ الربيعي يردّد على مسمع من ابنه قدّور، حينما شاهد اللاّز مقبوضاً عليه: «هذا اللاّز تقوده دورية، إن شاء الله هذه الضربة الأخيرة، تريحنا وتريح جميع خلق الله»[3].

لماذا هذا الدعاء عليه؟ ولماذا هذا الكابوس الذي سيطر على الناس منه؟. إن الجواب يأتينا على لسان اللاّز نفسه «إنني مشكل مطروح عليهم منذ أمد بعيد»[4].

نعم... إنه مشكلة أمام الجميع، إذ ليس له أب ينتسب إليه، وأمه لا تجرؤ على البوح أمامه بالسر الدفين، فضلاً عن أن تشرح له الحقيقة، فظل معلّقاً بين وجوده المجسَّد في الواقع كإنسان من حقه أن يعيش كما يرى الآخرين يعيشون، وبين شعوره بالانتهاء والعدم أمام حقيقته الغامضة، التي جعلت منه إنساناً متمرّداً قلقاً، لا يعرف الهدوء إلى نفسه سبيلا. فهو «في صباه لا يفارق أبواب وباحات المدارس، يضرب هذا ويختطف محفظة ذاك. ويهدّد الآخر إن لم يسرق له النقود من متجر أبيه أو الطعام من مطبخ أمه»[5]. وها هو بعد أن كبر واعتقد الناس أنه سيهدأ أو على الأقل تخف وطأته، ازداد سعاره، ونمت فيه شرور لم تكن لتتوقع «من السطو على المتاجر ليلاً، إلى الخمر إلى الحشيش، إلى القمار، حتى بلغ معدّل دخوله السجن ثلاثين مرة في الشهر»[6].

لكن، هل كان اللاّز يريد لنفسه هذا الدور في الحياة؟ والجواب لا. إنه الآن إنسان ضائع، شعب بلا هوية، يحاول أن يثبت وجوده بإثارة الصخب من حوله. إنه يتعمّد الاصطدام بالجميع بدون تمييز، ليثبت كل يوم أنه الأقوى بدون استثناء «حتى مَن تحاشى الاصطدام بي شتمته، أذللت جميع آبائهم وبناتهم، واعترضت طريق نسائهم وهن يذهبن إلى الحمّام، أو يعدْن منه، كانوا يجدون اللاّز في طريقهم في كل مكان، وكنت أجدهم أيضاً في طريقي حيثما اتجهت»[7].

أليست هذه كلها أعمالاً يُدفع إليها دفعاً. الشعب الذي احتُلّت أراضيه، وأنكر عليه الاستعمار الحق في الوجود؟. أليست هي الثورة على النفس وعلى الآخرين، توطئة للثورة على المحتل البغيض؟.

إن اللاّز - الإنسان، واللاّز - الشعب، يعرف ماذا يريد، ويعرف لماذا يسلك هذا السلوك المثير للانتباه، إنه يشعر بكينونته على هذه الأرض وبحياته تدب في جنباتها، وبوجوده الأصيل ذي الجذور العميقة بين ظهرانيها، إنه يحس بكمون النار في أعماقه، كأنها بركان هادر ينذر

بالانفجار الكبير ، وهو ليس كما يظنون نسياً منسياً ، أو امتداداً لأرض أخرى ليس له فيها جذور ، وليس لها في تربته بذور ، بل هو أصيل في أرضه التي يعيش عليها ، ومن حقه كشعب أن يعيش ككل شعوب الأرض. لقد أرادوه لقيطاً ، فلم يكن لهم ما أرادوا ، وأراد أن يكون شرعياً فكان له ما أراد.

هذا هو الخيط المتين الذي ينسج خيوط الرواية ، ويربط حلقات الصراع فيها ، إنه صراع اللاّز ـ الإنسان ، وصراع اللاّز ـ الشعب ، من أجل أن يكون له مكان تحت الشمس.

إذا اطمأن التفكير إلى هذه الحقيقة فإن اللاّز ـ الشاب المشاغب العنيد والفتى الصدامي الصلب ، قد آن الأوان كي يتحوّل صخبه إلى فعل ، وضجيجه إلى تأثير ؛ بمعنى آخر إن الشعب قد أصبح قادراً على كسر طوق الحداد ، ومهيّاً لأن ينتظم في ثورة ، ترصّ صفوفه وتوجّه طاقاته ، وتقوده إلى الحرية والاستقلال ، من خلال قدرة اللاّز الانسان على تجاوز واقعه المرير ، وثورته على وضعه القاسي. وتصبح الحاجة ماسة إلى أن يعرف أباه وأن ينبش جذوره ، حاجة الثورة نفسها إلى القيادة التي تعبّىء إمكاناتها وتحسن توجيهها ، وتسير بها مشوار الانتصار. القيادة الأصيلة ، التي تعود أيضاً إلى نبش الجذور ، لتحديد هويتها وإيضاح معالم شخصيتها.

● زيدان

هنا نعرف زيدان ، الشاب الجزائري المثقف الواعي ، الذي التحق بطوابير الذاهبين إلى فرنسا ، لتتلقفه (سوزان) وتقوده إلى الماركسية ، كمذهب في الحياة ، وتساعده على اجتياز مرحلة الأميَّة. وبعدها على النجاح في كل مراحل التعليم ، حتى وجد نفسه في مدرسة الكوادر في موسكو ليعود بعد ذلك إلى الجزائر وقد تبدّلت به الحال كثيراً. لكنه قبل أن يصبح شخصاً واعياً مفكّراً ، ترتكز مقاومته للاستعمار على أسس علمية ، بعيداً عن الانفعال ورد الفعل ، كان أمياً ، كمعظم الجزائريين ، الذين أسلمتهم فرنسا إلى براثن الجهل وأعاصير القهر النفسي الشديد ، المتمثّل في وجود علاقة غير شرعية مع بنت عمه (مريم) ، حين أحرقت فرنسا الدّوار بأكمله بعد أن قُتل ممثلها فيه ، فتفرّق الناس أيدي سبأ نجاةً بأنفسهم من أتون الحريق. وكانت إحدى زوايا الغابة من نصيب زيدان ومريم ، فلم يعصمهما الخوف من « الاستجابة لنداء العاطفة ، فكان بينهما ما كان ، وكان اللاّز ثمرة هذا اللقاء. وعلى حد تعبير زيدان : « وجدنا أنفسنا في الغابة كآدم وحواء ، وحيدين ، ولم يكن في وسعنا إلاّ أن نبيت ملتصقين ، كان الفصل خريفاً ، وكان الصقيع ينزل بعد الظهر فأنجبناك شرارة طائشة ولعنة صارخة »(٨).

كم من الفرنسيين قتلوا ، وكم من الدوّارات احترقت ، وكم من العلاقات غير الشرعية أقيمت ، وكم من لاز وُلد في هذا الجو المشحون بغير الشرعية؟. هذه هي الحلقة التي تسطع على الأحداث ، وتحكم الانسجام في المواقف التي وقفها الأشخاص كممثلين لقوى اجتماعية وسياسية ، دون أن يكون لهم موقع حيادي. وهنا يبلغ الفن الروائي هدفه الذي يستجيب لتأملات القارىء وانسياب أفكاره ، ويحثه على تجاوز ظاهر النص الأدبي إلى التفكير في أبعاده ، وتحسُّس الدوافع النفسية التي أملت السلوك على أشخاصه ، وتوقع النتائج الناجمة عن هذا السلوك.

فزيدان ، الرجل السياسي الملتزم ، هو الآن رب أسرة ، وأب لسبعة أطفال ، لكنه يترك أمرهم لأخيه حمّو ، وحمُّو يتهم زيدان بالمرض والضياع ، عاجزاً عن فهم السياسة التي تهلك رجلاً مثل زيدان!.. لكن العمل السياسي ، كان ضرورة وطنية في ذلك السجن الكبير الذي فرضته فرنسا على الجزائر ، حتى وصل إلى مرحلة تنظيم الناس في صفوف الثورة ، وتهيئتهم للالتحاق بالمقاتلين في الجبال ، وهذا ما فهمه حمُّو بعد ذلك ، حينما أصبح جندياً مسؤولاً عن المجموعة الانتحارية في كتيبة زيدان ، تلك الكتيبة النموذجية التي أبلت أحسن البلاء في مقاومة الاستعمار ، وتميّز أفرادها بروح البذل والفداء ، وتخلّوا عن كثير من العادات والأفكار التي تعيق الحكم الموضوعي على كثير من القضايا ؛ إنهم الآن مجموعة متجانسة برغم اختلاف انتمائهم الاجتماعي ، وكل واحد منهم قادر على

قيادة كتيبة مستقلة. إضافة إلى قدرتهم على ممارسة الديمقراطية بأسلوب صحيح؛ فلم يكن عسيراً عليهم اختيار خلف لزيدان. بعد أن تم استدعاؤه إلى القيادة للتحقيق معه في شأن اعتناقه الماركسية، وقد كان ذلك في الوقت الذي تعرّف فيه على اللآز ـ ابنه، واعترف له بذلك الماضي البئس الذي أوصله إلى هذا المصير.

إذا كان زيدان ـ الانسان، يملك كل هذه الصفات القيادية، التي جعلته موضع ثقة مجموعته. وجعلت فرنسا تتهمه بأنه وراء جميع العمليات الموجعة التي استهدفت وجودها، كما جعلت الناس ينسبون إليه أمر تنظيم وتوجيه جميع الشباب للالتحاق بالثورة. فإن زيدان (الأحمر) وفقاً لتسمية العامة له، زيدان رمز القوة السياسية، كان له موقف آخر من الجزائر ومن ثورتها، وإلاّ فبماذا نفسّر زواجه بغير مريم بعد عودته إلى الوطن ـ مريم التي انتحلت اسم (مريانة). تنصّلاً مما يربطها بالماضي؟ وبماذا نفسّر تجاهله للآز، كل هذه المدة الطويلة؟.. لماذا لم يتقدّم إليه كشاب.. مجرَّد شاب لا تربطه به أيّة علاقة، ليقنعه بالعدول عن فوضاه، وليصرفه عن عشوائيته في المقاومة، وليوجّهه وجهة سلوكية أخرى؟ لماذا كان زيدان يهرب دائماً من هذا اللقيط المنبوذ، في حين كان اللآز يبحث عن زيدان باستمرار، يتتبع خطواته ويقتفي آثاره. ويرصد أماكن تواجده. خاصة بعد أن قامت الثورة. وعرف أن زيدان من رجالها؟ لماذا أحجم عن التعرّف على اللآز. بله عن الاعتراف به؛ حتى جاءت اللحظة التي أقدم فيها اللآز نفسه عارضاً خدماته على الثورة، واضعاً إمكاناته في قتل الضابط الفرنسي تحت تصرّفها في الوقت الذي تراه ملائماً.

هنا فقط. شعر زيدان بأبوّته للآز. وبأن هذا الفتى جدير بالبنوّة وبمعرفة قسوة الماضي ومرارته. لأنه أهلٌ لتحمّل مسؤولية الوجود في الحياة. فاعترف له بالحقيقة المرة. وأقر أمامه بالأبوّة التي لم تعد للآز حاجةٌ إليها، فضلاً عن أن تكون له فيها فائدة. لأن اللآز الفرد قد كسر طوق القهر في تلك القرية الصغيرة. وتمكّن من مواجهة كل الذين يحتجون على وجوده. في وقت لم يكن له فيه نصير أو معين؛ وأن اللآز ـ الشعب، قد تجاوز مرحلة الوصاية التي تريد أن تفرضها فئة سياسية عليه. وبتعبير آخر، فإن زيدان ـ الفرد لم يكن له منافس إطلاقاً في اللآز، ووحده كان الأب الذي يستطيع أن يرعاه ويحنو عليه، ويوجّهه وفقاً لما يريد في الحياة. وإن زيدان ـ الرمز السياسي، كان في يوم ما مرشحاً لقيادة الجزائر. ولم يكن له منافس في هذا المجال، إلاّ أن زيدان ـ الفرد والانسان، اختار طريق المصالحة مع الواقع فتزوّج بغير (مريم) تماماً كاختيار زيدان ـ الرمز لسوزان تعبيراً عن المصالحة مع فرنسا، حتى ولو كانت سوزان هذه شيوعية.

إن زيدان ـ الانسان وزيدان ـ الرمز، كلاهما ظلَّ أسير التزامه وسجين اللحظة التي عرف فيها سوزان ـ الوجه الآخر لفرنسا.. فرنسا الجذب والاحتواء، التي عرفت كيف تشدّه إليها، وتصرفه عن أي تفكير في الماضي؛ فطمست في ذهنه ملامح مريم ـ الزوجة الحقيقية، مريم ـ الأرض الأولى باحتوائه، والأجدر باجتذابه؛ وانتقلت به إلى نمط جديد من التفكير جعلته يتشبّث به، دون أن تكون قادرة هي على الاستمرار فيه، لأنها ليست سوزان القلب والحب والعاطفة، وإنما هي سوزان الترويض، والتطويع والتطبيع، إنها الوجه الآخر لفرنسا الذي يكون مقبولاً لدى زيدان الفرد، ولدى زيدان الرمز: «ذات يوم بادرتني سوزان: مُر علي عندما تخرج في المساء...

في المساء طلبت مني أن أصحبها...
ثم اقتحمت بي بناية داكنة اللون...
كنت أقرأ من أجلي ومن أجلها...

وما أن أعود في المساء حتى تجلسني أمامها. وتشرع في إعادة تلقيني ما قرأت. أو في شرح نص من النصوص، ثم تطلب مني أن أنسخ صفحة من كتاب. أو محاسبتها في الصباح قبل الدهاب إلى العمل بمحفوظة».

«وذات يوم. قادتني من يدي إلى دار البلدية لنسجّل عقد زواجنا، وفي كل ليلة قبل أن نام تقبّلني وتهمس في أذني: ستدخل الجامعة الشعبية... وببساطة أيضاً وجدتني

في حلقة ماركسية، ثم في خلية شيوعية إلى جانبها: وليلة احتفالنا بتخرّجي من الجامعة الشعبية، همست سوزان في أذني: سنرحل إلى موسكو للدخول إلى مدرسة القيادة الوطنية... بعد سنة. غادرتني في موسكو إثر برقية من باريس. تُخطرها بمرض أمها، ولم تعد. اندلعت الحرب العالمية الثانية فحرمتني منها ومن التعليم أيضاً. عدت بسرعة إلى الجزائر، لأقضي هذه الست عشرة سنة عضواً دائماً في الحزب الشيوعي.. كنت في الحادية والعشرين من عمري، وكانت وجنتاها وأنفها تشبه إلى حد كبير وجنتي وأنف مريم ابنة عمي. التي قرّرتُ أن أسافر إلى الوطن وأبحث عنها وأعود بها حالما أوفر مبلغاً لائقاً وأجد سكناً »[٩].

لكنك عدت يا زيدان. ولم تكلّف نفسك عناء الاتصال ولو سراً بمريم، كما لم تكلّف نفسك عناء المواجهة لتضم ابنك إلى أسرتك الجديدة. لقد اخترت الطريق السهل، وهو المصالحة مع الواقع. في حين اختار اللاّز طريق التمرّد عليه، دون تأثير من أحد ودون توجيه من أحد. ودون أن يثق أحد بقدرته على الفعل كلهم أنكروا على اللاّز حقه في الحياة، وكلهم ـ بما فيهم أنت يا زيدان ـ أنكروا عليه صلته العضوية بالثورة نتيجة لعدم قناعتهم بأحقيته في الحياة، وكلهم كانوا له مع الالتحاق بالثورة؛ قصة يتراوح موضوعها بين الترغيب والترهيب. وتتباين دوافعها بين القناعة والخوف. إلاّ اللاّز، الذي اختارها بنفسه. بل هو الثورة عينها. والوحيد الذي احترق بأتونها. لأنه كان التعبير الصحيح عن الشعب بكل مظاهر الحياة فيه.

فقدُّور ابن الشيخ الربيعي يقول يا للاّز: « لقد اغتر المسكين يقينا أنه خدع.. انخدع.. »[١٠].

واحمزي صاحب الأسطبل وهمزة الوصل بين الثوّار في الجبل والمنتمين إلى الثورة في القرية يقول: « أنا آحمزي، لا تخفى عي صغيرة ولا كبيرة من أحوال الناس. أنا آحمري: شاب راسي في الانشغال بأمور الناس. لا أعرف من أمر اللاّز شيئاً. هذا اللقيط اللعين... اللاّز ابن مريانة يغيب عني أمره. يقين أن الأمر لا يتعدّى بعض كلمات تفوّه بها قدور أمامه »[١١]. وزيدان يقول: « آه. لم يحن أواننا بعد، سابقون لزمننا، تفصلنا عنه مسافات، مسافة جيلين أو ثلاثة على الأقل »[١٢].

إنه الفارق بين اللاّز وزيدان. بين الثورة والحزب الشيوعي الجزائري. فزيدان ـ الحزب، زيدان الشريحة السياسية المقولبة في إطار جاهز من القناعة النظرية، لم تستطع أن تفك الحصار عن ذاتها، وظلت الثورة بالنسبة إليها تشخيصاً حياً لطموح البرجوازية وتسلّقها الطفيلي، ولم تجد فيها أكثر من **تيريز دي كيرو** جديدة: « إنها مجرَّد برجوازية طغى عليها فراغ مهول، توسوست وراحت تبحث عن نفسها »[١٣] « وسواء أحب فرانسوا مورياك أم كره، فإن تيريز دي كيرو ليست سوى البرجوازية بعينها »[١٤].

إن هذه القناعة مرتبطة بقناعة أخرى هي الشك في قدرة جبهة التحرير على الانتصار، إنه شك غير معلن ولكنه حاضر دائماً في ذهن زيدان، موجود أبداً في تحليله « ترى، هل أعلنوا الكفاح المسلح من أجل تحرير الوطن أم من أجل تكوين حزب؟ يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد، لكن الطريق طويل وشاق... إن العداوات والأحقاد الحزبية تلعب دوراً كبيراً في المسألة، وستسارع الأحزاب الانتهازية البرجوازية إلى الاستراحة من نفسها بإعلان الانضمام إلى جبهة الأفراد، وما دام ليس هناك ميثاق، أو أية شروط أخرى. فإنه لا أحد يدري أيّ حزب سيتولى قيادة الثورة، وأية خصومات ومنازعات، واصطدامات ستشهدها قمة هذا الحزب، وأية كتل وجماعات ستنشأ كالفقاقيع بين حين وآخر »[١٥].

إنها قناعة خاصة بالحزب الشيوعي الجزائري، الذي اعتبرته الثورة جزءًا من الحزب الشيوعي الفرنسي، أي أنه امتداد للوجود الفرنسي نفسه. في حين كان للأحزاب الشيوعية الأخرى في أوروبا رأي آخر؛ فهذا الاسباني الذي التحق بصفوف الثورة. وتعرّف على زيدان في السجن. والذي يمثّل رمز الحزب الشيوعي الاسباني لا يوافق زيدان على تحليله ويناقشه قائلاً: (« ما كان يعوز

تيريز دي كيرو ، هو معرفة ماذا تريد من البدء ، أما جماهير الشعب هنا ، فإنها تعرف حتى بغريزتها ماذا تريد ، وستصل إليه ، طال الزمان أو قصر . لقد أضحت مسألة القيادات شكلية عندكم على ما أرى »[١٦].

إذن ، نستطيع أن نقول باطمئنان . إن زيدان . كشخصية محورية في الرواية ، وكرمز لقوة سياسية كانت موجودة في مرحلة التحرير ، لم يتمكّن من التكيُّف مع ما آلت إليه صورة النضال في الجزائر ، وظل حبيس قفص خاص لا يحاول الانفلات منه ؛ علماً بأن النافذة مشرعة ، وتسمح بالانطلاق إلى ما هو أرحب ، لأن الثورة قبلت به كواحد من جنودها ، وأقرّت بأعماله البطولية وتضحياته الكثيرة ، وأعطته فرصة الانعتاق من قيد الانتماء الحزبي ، كان ذلك قبل أن يعترف للآز بالماضي ، وقبل أن يعترف به كأب . أمّا الآن وقد أصبح اللآز طليقاً بلا قيود ، نابشاً لجذوره ، عارفاً بأصولها ، فإن على زيدان أن يختار بين اللآز وسوزان ، بين الثورة والحزب الشيوعي ، دون أن يكون هناك مجال للتوفيق بين الخيارين ، لأن سوزان هي التي سرقت زيدان من اللآز وجذبته بعيداً عنه ؛ وليس من العدل في شيء أن تكافأ بتحقيق الوصاية عليه ، من خلال السماح لزيدان باحتوائه وهو ما زال معلّقاً بأهدابها ، إنه خيار بين موتين : الموت الجسدي أو الموت الحزبي ؛ وقد اختار الأول مفكراً في مصير اللآز بعده : « حظنا سيء يا اللآز ، يوم وقعت في قبضة يدي أفصل عنك ، لن تتطوّر ، خلقت مادة خام ، وستظل كذلك ، لن يفهمك أحد بعدي يا اللآز ، حتى أنت لن تفهم نفسك ، التحقت بها عفوياً ، بل هي التي التحقت بك ، أدركتك الثورة وأدركتها ، أدركتها عملاً وأدركتك روحاً ، ولما حان أوان اقتحامها لرأسك ، لفكرك ، ها هو الجسر يقطع بينك وبينها ، ها هي النهاية تحل ، الموت »[١٧].

إنها أنانية مفرطة من زيدان أن يذهب هذا المذهب ، ولكنها القناعة النظرية قادته إلى هذه النتيجة ، حيث كان شيوعياً حتى النخاع ، وكانت لشيوعيته الأسبقية على جزائريته في وقت كانت فيه الأسبقية للوطن على كل شيء ، فكان المصير المحتوم هو الموت ؛ ولم تنفع زيدان توسّلاته في أن لا يرى اللآز مصيره أو يعرف به .

هذه هي شخصية زيدان ، انسان قلق . عاش أزمة الاستعمار تحت وطأة القهر النفسي الشديد ، ولم يتمكّن من الانصهار النهائي في بوتقة الثورة . متمسّكاً بجميع الملاحظات التي كانت له عليها . ومنشبثاً بمذهبه الفكري الذي طُلب إليه التخلي عنه معتبراً « أن الشيوعية ليست رداء ننزعه في الوقت الذي نشاء وإنها عقيدة تقوم أول ما تقوم على الاقتناع المدرك للحياة »[١٨].

« يوم التحقت بالثورة لم أستشر أحداً ، لا الحزب ولا غيره ، برغم أنني عضو اللجنة المركزية ، أوجبت الظروف المحيطة بي ذلك . ففعلت ؛ وإذا ما سُئلت هل انسلخت من حزبي فسأجيب فوراً بالنفي ، وإذا ما طُلب مني ذلك فسأظل أسأل عن الدوافع ، لن أنسلخ ، ولن أدفع الاشتراك ، ولن أسعى لتكوين خلايا جديدة ، وسأظل أكافح من أجل الاستقلال »[١٩].

قد يظن بأن هذه الشخصية ، إنما هي رمز للصلابة والالتزام ، والثبات على المبدأ ، والتضحية بالنفس في سبيل المعتقد ؛ فعلاً ، كان يمكن لهذا النموذج البشري أن يكون كذلك لو كان سلوكه العام في الحياة مربوطاً بمعتقده ، ولما شاهدناه في المآزق الحرجة يؤثّر مصالحة الواقع على مواجهته ، ولما شاهدناه أيضاً يستسلم بسهولة لفقدان اللآز مرة أخرى مكتفياً بتعزية نفسه بالقول : « الشيوعي والشمعة لا دور لهما إلاّ الذوبان ، الانتهاء والذوبان . هكذا »[٢٠].

إنه هروب إلى الأمام يا زيدان ، لأن التشبث بطين الأرض أقوى الحوافز في الدفاع عنها ، مهما سمت الأفكار ، ومهما كان صواب المنطق ، في لحظة لم يكن فيها للمنطق أي دور بله تأثير . ثم إن هذه هي قناعتك عن الثورة كوليد « سيظل بلا منطق زمناً طويلاً .. من يدري أيّ عذاب يلحقه أثناء مرحلة المراهقة »[٢١].

في الحقيقة كانت هناك أمور تمزج الحاضر بالماضي . فالمسؤول الكبير المكلّف بالحوار مع زيدان ومحاولة إقناعه العودة عن شيوعيته ، كان فيما مضى خصماً سياسياً لزيدان ،

وكانت تتراءى له كلّما نظر إلى عنقه صورة الانتخابات سنة (١٩٤٧) «لو لم يزاحمني في انتخابات ١٩٤٧، لفزت »[٢٢]. ومرة أخرى «يركز بصره في عنقه (زيدان)، ويفكّر في قضايا أخرى، ولعلّه كان يفكر في مسألة الخلافات التي حدثت وأدّت إلى الاصطدامات المسلحة بين المجاهدين »[٢٣].

إن الخلافات كان لها علاقة بمسار الثورة، كما كان لها تأثير واضح على قراراتها، وربما كانت نهاية زيدان واحدة من آثارها، وقد ركّزت الرواية على هذا الجانب بشكل ملحوظ، من خلال هذا الحوار بين زيدان ورسول القيادة:

«- مرحباً مرحباً، استرح.
- منذ يومين وأنا أهرب في هذا الجبل.
- لم تتابع الخيط إذن.
- بالفعل، لقد انقطع في الجهة الشرقية بسبب الخلافات التي حدثت، ألم تصلكم بعد.؟
- بلغتنا أخبارها فقط، متى غادرت القيادة؟.
- هذه عشرون يوماً، بسبب الخلافات كما تعلم.
- وهل جئت بسبب الخلافات؟ »[٢٤].

وفي حوار آخر بين زيدان ومندوب القيادة نقرأ ما يلي:

«- متى وصل رسولي إليكم؟
- اليوم، أربعة أيام. سافرت حالما وصل.
- كنت واثقاً من ذلك، لكن ألم تعلم منه سبب تأخره هذا ؟
- الخلافات، لم يحسن اختيار الطريق، استشهد كل مرافقيه بعد مطاردات كثيرة.
- آه، توقعت ذلك أيضاً، وكيف الحال في منطقتكم؟
- العمل يسير على أحسن ما يرام، كمائن، هجومات، اشتباكات، ذبح، اغتيال، غنم متواصل. الشعب في يدنا.
- لا أعني ذلك، فيما يتعلق بالخلافات. »[٢٥].

إذن، إلى هذه الدرجة كانت الخلافات حادة. وربما كان لها تأثير ملموس على كثير من الأحكام والقرارات... والرواية وإن لم تكن بصدد التأريخ للثورة، إلاّ أنها كانت حريصة على تسليط الضوء على أبرز التحوّلات التي رافقتها؛ وأرتنا بوضوح الحيرة لدى مندوب القيادة قبل تنفيذ حكم الإعدام بزيدان «أعطيتك فرصة أخيرة، يا زيدان، بعض كلمات تقولها، وهذا كل ما في الأمر.. قالها بتأثر، وصور انتخابات ١٩٤٧ تتراءى له، وفكّر أنه جزائري، أخي على كل حال ومهما كان الأمر. »[٢٦].

لكن الأمور كانت قد وصلت إلى خاتمتها وكان مصير زيدان قد أصبح أمراً مقضياً لتبدأ الثورة مرحلة أخرى مع رجال آخرين.

• بعطوش

هنا يظهر دور بعطوش، ويبرز شأنه في الثورة: إنه شاب قروي، ما فتىء يخاطب نفسه في الثكنة العسكرية وهو مجنّد في جيش الاحتلال الفرنسي: «آه يا بعطوش، يا راعي العجول، التابعة الملتصقة بك يهودية، والعين التي أصابتك زرقاء لأصهب، آه يا بعطوش، لما ولدت عربياً في هذا البلد التعيس »[٢٧]، «لقد صرت شخصية، إنك أصبحت سيداً معتبراً، الله يبقي الستر، اليوم سارجان، غداً ملازم، بعد غد ضابط كبير، آه يا بعطوش راعي العجول.. آه »[٢٨].

هذا هو مفتاح شخصية بعطوش، الفق الانتهاري الذي يعتبر نموذجاً للطموح الذيلي، والتطلّع الزائف إلى مركز مرموق في الحياة. إلى حد أنه لا يتورّع عن القيام بالأعمال المشينة تحقيقاً لهدفه، واستجابة لنداء تطلعه، لقد بدأ سلمه في الصعود. في وقت كان فيه الصراع على أشده بين الثورة والاستعمار، وفي لحظة كان آلاف المجنّدين الجزائريين في الجيش الفرنسي يتركون أماكنهم للالتحاق بصفوف المجاهدين في الجبال. وكانت شبكة تنظيم المجنّدين وتهريبهم قد بلغت حداً يصعب اختراقه من قبل فرنسا. فمن غير بعطوش لهذا الدور. الخياني القذر؟ «إنه ليس فرنسياً، ومع ذلك يأتي أعمالاً لا يأتيها إلاّ فرنسي مخلص »[٢٩].

فبعطوش ، هو الذي سفك دم أم اللآز . ودمَّر متجر الشيخ الربيعي وضاجع خالته خيرية ، أم الشهيد قدور . . ضاجعها مرتين قبل أن يقتلها قتلة شنعاء « حمل الفأس وعاد يلهث ، هوى مباشرة على رأسها فتطاير ، ثم على بطنها فشقها ، ثم على عورتها فطمسها »[٣٠]. وهو الذي حاول اغتصاب زينة ، عروس الشهيد قدّور ، حين تراءت له غادة لطيفة في الملعب البلدي « حيث حشد كامل سكان القرية ، وتم إعدام عشرة من أعيانهم فداء للسارجان ستيفان »[٣١] ؛ وفوق هذا كله ، فبعطوش هو الذي أفشى سرّ اللآز . بمعنى آخر ، هو الذي أفشى سر الثورة ، وأنكر انتماءه العربي ، وصبّ آلاف اللعنات على هذا الانتماء . وكأن فعاله ، التي أشرنا إليها آنفاً ، لون من ألوان التخلّص من أصوله ، والتيه في بيداء التبعية المخزية ، التي لا تلقى الاعتراف ولا الاحترام حتى من ضابطه الذي يسخره لأخس الأعمال ويفرض عليه أحط أنماط السلوك « هذا الشاب القروي الذي تلفه البدلة العسكرية الفرنسية الشريفة . . . القذر ، لو كان واعياً للبثَ مع اخوانه . الانتهازي القذر ، لا يدرك تماماً أنه ليس فرنسياً »[٣٢].

بعطوش هذا ، لا يمكن أن يصمد طويلاً في ظل هذا الجو الضاغط ، لسببين : أحدهما مادي والآخرَ نفسي .

فأمَّا السبب المادي ، فهو شعوره بالخوف على مصيره ، وأن الثورة له بالمرصاد ، وأنه سيحين الوقت الذي لن يبقى فيه للألقاب قيمة ، إن حسه الانتهازي يحدّثه عن نهاية دوره لدى الفرنسيين ، وعن قدرة الثورة على الوصول إليه مهما كانت قوة الحراسة حوله .

وأما السبب النفسي ، فهو تلك الكوابيس المرهقة التي سكنت أعماقه بعد فعلته الشنعاء مع خالته ، حيث أصبح **أسير الهوس** للذة الجسدية التي شعر بها من جهة ، ومحاولاً تبرير سلوكه بإلقاء اللوم عليها « من طلب منها أن تكون خالتي ؟ أروع التذاذة عرفتها في حياتي ، آه ! عليها اللعنة ، لماذا أشعر بالخجل والجنون ؟ ما كنت أبداً أتصوّرها بمثل تلك الروعة ، كانت بالأول باردة كالميتة ، ثم فجأة غمرها دفء عجيب ، عليها اللعنة . أنّت ، وطوّقتني ، وتجاوبت معي بشكل فظيع »[٣٣].

وأسير ضميره ـ إن كان له ضمير ـ من جهة أخرى . الآن بدأ يستفيق من وهج النشوة ليدخل في دوامة القلق والحيرة ، والاضطراب ، والشعور بالخزي والمهانة والعار « شعر بالقشعريرة تعتري بدنه ، وبالاعتصار يذيب قلبه » « مرة واحدة شعر بالقشعريرة وبآلاف الإبر تنصب على بدنه ، حيث بدت له خالته عارية بين أحضانه . . . كنت كالوحش ، كالحمار عليَّ اللعنة »[٣٤].

وكان لا بد للكابوس من أن يتصاعد في كيانه ، بعد أن شاهد السخرية نحوه تصدر من الضابط الذي أمر له بالترقية ، والحراسة المشددة ، وأمَّله بالوعود البراقة ، وسمح له بالعربدة ، ويسّر أمامه سبل الفسق والفجور ، لقد وخزه الضابط حقاً ، حينما تباهى بفعلة بعطوش الخسيسة أمام جنوده « يقيناً أن مضاجعة المحرمات ألذ شيء على الإطلاق »[٣٥].

لكن أين هو من كل هذه النكات السمجة الآن ، وتلك القهقهات الصاخبة ، إن داخله يحتج عليها « هل هناك في هذه الحياة من لا يزال قادراً على مثل هذه القهقهات »[٣٦]. وقاده الإرهاق الشديد إلى سرير المرض ، ثلاثة أيام بلياليها كان لا يجرؤ فيها على النظر إلى نفسه ، ولا يستطيع خلالها أن ينبس ببنت شفة حتى تراءت له أطياف الحلول الصحيحة من خلال التفكير بالإقدام على عمل يمحو به صورة الشؤم التي تكوّنت لديه عن نفسه ، وهكذا تمثّلت له الثكنة برمتها كومة من الرماد ، بعد أن يقدم على تدميرها ، كان فكره يعمل بالأسلوب البرقي ، وكان وضوح الرؤية لديه كأنه يقرأ صفحة في كتاب ، ثم ما لبث أن نفذ ما راود ذهنه من أفكار ، وطهَّر نفسه من درن الذل والخيانة واستقبل ممن حكموا عليه بالإعدام في الأمس القريب بالأهازيج والأحضان ، « تأمَّل المسبل بعطوش ، وأطال النظر إلى صدره ، وفكّر لو خرج هذا المساء من الثكنة لاستقرّت رصاصة من مسدسي هناك ، راهنت على قتلك برصاصة واحدة ، ثم تقدّم منه وتناوله بين أحضانه وغمره بالقبل والدموع تنهمر من عينيه »[٣٧].

أنقذ بعطوش نفسه ، وأصبح الآن في سرب الثوّار وفي خضم الثورة وأخذ مكان زيدان في القيادة بعد أن كانت الفرقة نفسها هي التي حكمت عليه بالإعدام ، وهي نفسها الفرقة التي اختارت خليفتها بعد زيدان وقبل أن يفارقها .

إن الرواية تومىء لنا بأن نهاية زيدان كانت إيذاناً ببدء فجر بعطوش ، وهي نتيجة غير طبيعية ، كما أنها مكافأة في غير محلها لشخص مثل بعطوش . بعطوش - الفرد ، الذي عاش الخسة في أدنى درجاتها ، وبعطوش الرمز الذي تسربل بالخيانة في أوج صلفها ؛ أصبح الآن في موقع قيادي من الثورة . ربما كان شجاعاً ، وذكياً ، لكن هذا لا ينفي عنه صفة الانتهازية التي كانت نوافذها مشرعة لمن يريد التسلّل والتسلّق ، والنفاذ إلى صلب الثورة والوصول إلى موقع المسؤولية في الدولة بعد الاستقلال ، حيث أصبح حمُّو معتمداً على بعطوش في الحصول على عمل .

• حمُّو

إنه أخ زيدان وصديق قدّور ، وعامل الحمّام الفقير ، البائس ، فكم هي شاقة تلك الحياة التي يحياها يومياً بين الحطب والدخان وأتون اللهب ، لقاء دريهمات معدودة يسد بها رمق عشرة أفواه ، زوجة أخيه وأولادها الثانية وأمه . . والأيام تمر رتيبة على هذا المنوال ثقيلة ، بطيئة ، ومستوى المعيشة آخذ في الارتفاع دون أن يصاحب ذلك زيادة في دخل حمُّو ؛ ومن يراه على هذه الحال يشعر بأنه مستسلم لقدره ، قانع بنصيبه من الدنيا ، لا يفقه شيئاً من اهتمامات أخيه السياسية ويردّد بحسرة « زيدان قتلته السياسة » إنه يشعر بالظلم من أعماق قلبه ويردّد على مسامع صديقه قدّور « خبزة مرة والعياذ بالله » . فطاقته تتبدّد خلال اليوم كله بين الحمّام وبنات مالكه الثلاث ، دايخة ، ومباركة ، وخوخة : ويمضي الزمن على هذه الوتيرة حتى تندلع الثورة ،ويصبح حمُّو واحداً من المجاهدين بين صفوفها . ويرتقي في سلّمها حتى يصبح مسؤولاً عن إحدى الفرق الانتحارية ، ويتحوّل أثناء ذلك إلى انسان ؛ يناقش ويحاور ، ويقنع الآخرين باللحاق به ؛ إنه الآن إنسان آخر يعرف لماذا سلك هذه الطريق ، ولم يعد ذلك الأمي الساذج ، ولا ذلك العامل المستنزف . فحياته أصبحت موزّعة بين الجبل والقرية ولقاؤه بقدّور أصبح يحمل معنى سياسياً ، إذ يشرح له عن الحق والكرامة والاستقلال ويسهب في ضرب الأمثلة بالمغاربة والتونسيين والمصريين وحتى بالهند الصينية والأكثر من هذا إن حمُّو الآن أصبح صاحب موقف . هكذا علمته الثورة حين جعلت منه إنساناً جديداً ، فإذا كان قدّور صديقه ، فإن الثورة لا تعرف إلاّ الذين معها وأنه «لا بد من الاختيار بين الثورة وبين الفرنسيين والعملاء ، وأن الحياد بحد ذاته يعتبر تحيّزاً إلى العدو »[٣٨] .

من هنا كانت خواطر حمُّو زاخرة بصور حيَّة ، لم يكن يلاحظها من قبل حينما قال له قدور « وماذا لو نبقى هكذا كل واحد على حاله »[٣٩] . لقد شعر بقتامة الصورة وبالفارق الكبير بينهما ، فصاحبه مع الحانوت والعيش الرغيد وهو مع الحمام اللعين والبنات الشرهات والأفواه العشرة « هو في متجر أبيه مع الميزان والتوابل والسكر والقهوة والزيت والشحم وزينة ، وأنا في فرن الحمّام من الثالثة قبل الآذان الأول ، وأنا اعرق وأتعب وأشقى حتى ساعة متأخرة من الليل لأواصل عملاً آخر . . إرضاء بنات المعلم »[٤٠] ، « وراس ابن عمي فات الحال إمّا . . . وإمّا ، الشامي شامي ، والبغدادي بغدادي . الذبح من جهة والرصاص من جهة »[٤١] .

إن جذرية الموقف على هذه الصفة كانت تحوّلاً في مسار قدُّور نفسه وفي ذات الحين كانت إيذاناً بأن حمُّو لن يعود مرة أخرى إلى الحمّام ، ولأنه لا يملك إلاّ النية الطيبة ، والقلب النقي ، والسريرة الحسنة ، فقد عاد بعد الاستقلال ، خالي الوفاض ، كآلاف المجاهدين ، إلاّ من شرف الاسم الذي يحمله الآن ، والذي يتيح له الانتظار أمام شباك المنح ، ويحمله على الصبر أمام ذلك الموظف الذي كان خارج الثورة ، ومن خصومها ، والمتعاونين عليها ؛ ثم هو اليوم بيديه الاثنتين يعد النقود ليسلمها لمستحقيها ، إنها صورة مقلوبة للأمل الذي كانوا يمنّون

أنفسهم، ولكنهم الآن مجبرون على تحمل الموقف، فالدوام يثقب الرخام - على حد تعبير الشيخ الربيعي. وحمّو ينتظر عودة بعطوش إلى القرية حيث قرّر الاحتفال بختان ابنه، ولعله يساعده في العثور على عمل جديد.

● قدّور

- ابن الشيخ الربيعي، شاب متوسط الحال لا يستشعر الوجود الفرنسي ولا يحس بوطأة الاحتلال. إضافة إلى أنه لا يلاحظ أثره السلبي على الآخرين؛ فالحياة تنقله من طور إلى آخر، وطموحه يزيّن له الغنى الوافر، فبعد أن كان خلف المحراث أصبح صاحب حانوت، وبعد أن كان في الريف السحيق أصبح في قلب الحاضرة؛ وها هي أمانيه تتراءى له بوضوح أمام عينيه حيث يتمثلها في - زينة - مؤملاً الزواج بها والعيش معها ولها، مستعيناً لتحقيق ذلك بأساليب الجهلة والسّذج في هذه الموضوعات، حيث لم يترك وسيلة من وسائل الشعوذة وكتابة التعويذات إلاّ واستخدمها ليعرف نوايا زينة نحوه، وهل تشاطره الحب، وتبادله الإعجاب أم لا. «وحق ربي ما تركت باباً، خسرت أكثر من عشرين ألفاً. حرز سي حمّود وما أدراك، لم ينفع. سحر سي القريشي وما أدراك كذلك، وحرز سي عثمان وما أدراك كذلك»[٤٢]، حتى فرجت أخيراً على صفحات كتاب الشيخ السيوطي (الرحمة في الطب والحكمة).

وشاب هذا شأنه، لا يرى واجبه نحو الحياة إلاّ في التبرّعات المالية. كبناء المسجد أو المدرسة، أو إغاثة المحتاج، كما فعل يوم زلزال الأصنام الذي آلمه، فتبرّع للمنكوبين تبرّعات ضخمة، ولم يكن يخطر بباله يومها أن الطبيعة تشارك الناس آلامهم، وأنها تميد تحت أقدام الغزاة، وتنتفض احتجاجاً على وطأة الظلم، وظلّت هذه حاله حتى انفجر البركان الأشد، بركان الناس، ولم يعد أمام الناس أي خيار، فإمّا هنا وإمّا هناك. وصعب على قدّور الأمر «فإخراج الفرنسيس أمر مستبعد جداً جداً، هم أقوياء، نحن ضعفاء»[٤٣]، ولكن «رغم أنه لا فائدة من الالتحاق بالثورة، فإن الالتحاق بفرنسا فيه خسارة»[٤٤].

لكن الدوّامة لم تطل، ولم تتخذ الحيرة مساراً سلبياً، إذ أصبح قدّور واحداً من المجاهدين البررة، يؤدي دوره بصمت، ويحقّق النتائج المرجوة بهدوء، وهو جالس في حانوته يستقبل هذا ويودع ذاك، منظماً العلاقة بين الملتحقين بالجبال وأولئك الذين لم يكشفوا بعد في القرية، إلى أن جاءه دور الرحيل مرتين: إحداهما من البيت إلى الكهف، والثانية من الكهف إلى القبر، لاحقاً آلاف السابقين من الشهداء.

هذه هي الشخصيات الأساسية في الرواية التي تتخلّلها شخصيات ثانوية - مثل آحمزي صاحب الاسطبل الذي يؤوي من جاء عليه الدور بالالتحاق بالجبال... وسي الفرحي صاحب البغلة الشهيرة التي حملت على ظهرها الآلاف ليلة بعد ليلة، دون أن يُكشف أمرها بسبب حنكة صاحبها ودهائه. ومثل هذه التخصيات الثانوية. ليست إلاّ وسائل حبك في الرواية، دون أن يكون لها دور في مسارها.

المبنى الفني

إذا حاولنا أن نتبيّن الأسلوب الروائي الذي اعتمده الكاتب إيصالاً لفنه، نجد أنه استخدم عدة وسائل متكاملة وكفيلة بإشباع نهم الناقد، لو تمكن من تتويجها بحقيقة فنية تتناسب مع جوهر الفكرة التي انتهى إليها؛ فالفكرة الأساسية في الرواية مرتكزة على محورين للحياة، أحدهما مألوف بحكم العادة ومرغوب فيه بحكم طبيعة الإنسان وميله الفطري في الأغلب الأعم إلى الدّعة مهما كانت صعوبة الحياة، وأيّاً كانت المشقة التي يعانيها يومياً للحصول على لقمة العيش؛ والمحور الثاني مرغوب عنه بحكم طبيعته المرهقة واتصافه بشظف العيش والخشونة في المأكل والملبس والمأوى، إنه التضحية بالراحة والالتحاق بالقلق، وترك ما هو كائن، تطلّعاً إلى ما سيكون دون تحقّق مسبق من إيجابية النتائج. إنه ارتياد المجهول وصعود قطار المغامرة والدخول في عالم آخر، قد يعني الحلم أو الموت أو الولادة من جديد، وهو مركب صعب لا يرتاده إلاّ ذوو الهمم الكبيرة والآمال العريضة، فكيف

يمكن زج شعب بأكمله في خضم هذه المغامرة التي لا تستهوي إلاّ ذوي الطموح من الرجال.

إن إحدى وسائل الكاتب الفنية هي أسلوبه في القص. وهو أسلوب عماده تداعي الأفكار وخروجها للحياة من خلال التأمّل في الماضي. فالماضي دائماً كان هاجس الشخصيات جميعها ولم يكن المستقبل بالمعنى العام الشامل. واضحاً عند أي منها وهذا يزيد من صعوبة المشوار الروائي والفني - حتى زيدان المثقف الواعي لم يكن المستقبل بالنسبة إليه متعلّقاً بالوطن بقدر ما كان متعلقا بالفكرة. وهنا تبدو لنا الوسيلة الفنية الثانية وهي الرواية بصيغة المتكلم. وهو أسلوب يتيح الفرصة للكاتب كي يتحرّر من عبء تعدّد النماذج في اختيار المواقف للشخصية الواحدة. إذ من المعروف أن الأسلوب الآخر، أي استخدام صيغة الغائب أكثر صعوبة، لأنها تفرض معرفة الكاتب المسبقة بكل شيء، مما يؤدي إلى تداخل مواقف الشخصيات وتشابكها في ذهنه، الأمر الذي يستدعي التدقيق المحكم والتنسيق الذي لا يفقدها الانسجام الفني. في حين أن صيغة المتكلّم تيسر للكاتب تقمّص الشخصية وإمكان اشتقاقها من نفسه والتحكم في مسارها، اتساقاً مع الشخصيات الأخرى. وبتعبير أستاذنا الدكتور شكري عياد، أن الكاتب الذي يعتمد أسلوب المتكلم «أشبه بواحد من الممثلين على المسرح. أمّا الكاتب الثاني فهو أشبه بالمخرج الذي يحرّك جميع الممثلين ولا نراه» وبقدر ما ينجح الكاتب في اختيار وسائله الفنية بقدر ما يحقّق غرضه الذي يرمي إليه في معالجة الموضوع..

ومن الوسائل الفنية التي استخدمها الكاتب، التشبيه المحسوس المستوحى من المشاهد اليومية للحياة والمتناسب مع محدودية المعرفة لدى معظم الشخصيات:

فاللقيط كأنما التقطته أمه من الرماد مثل دجاجة، والدار بدون صغيرة موحشة كالقبر، وأم قدور جذلى تهتز طرباً كأنما اغتسلت في الكوثر، واللاّز يعرف أين وكيف يجد زيدان فكأنما يشم رائحة قنصه. وهو يفحص السيارات الرابضة وكأنه تاجر أغنام في سوق. فإذا ما انتصب معتدلاً فكأنه نادل مقهى، إلى غير ذلك من عشرات التشابيه التي تقرّب الفهم للمدارك المحدودة؛ فإذا ما أضفنا إليها الأمثال الشعبية المتداولة على الألسنة والتي تعلّل كل مظاهر الحياة - يسرها وعسرها، غناها وفقرها، نعيمها وبؤسها - تكاملت لدينا وسائل الفن الروائي بالوسيلة الأخرى. وهي المعرفة المحدودة لدى معظم الشخصيات الذين لا تكبحهم قوة المدارك عن الحسم السريع في اختيار الموقف المطلوب:

- إذا كانت الفكرة الأساسية في الرواية هي الخيار بين السكون والحركة أو بين الاستقرار والمغامرة... المغامرة الشاقة التي طلب من الجميع أن يخوض غمارها ويلتظي بنارها... والتي تعني الموت أو الولادة من جديد. فلا مناص من تضفير مختلف أدوات الفن خدمة لهذا الهدف السامي والصعب في الوقت نفسه، وهنا تكمن الحقيقة الفنية التي هي أقوى وسائل الإبداع في الرواية أرادها الكاتب أم لم يردها.

فالمثقف الواعي (زيدان)، لم يكن في حقيقة القصد مثقفاً ولا واعياً، لأنه وقع في شرك الغربة مرتين: إحداهما، حين ارتهن نفسه لدى سوزان، والأخرى، حين استكان إلى الواقع السياسي وكيّف حياته مع نصوص تشريعاته وخاض الانتخابات في ظل أعلام الاحتلال؛ وهذا هو خباره في المرتين، والغربة التي نعنيها هي غربة الذات والنفس والشعور؛ وفي الوقت نفسه فقد كان مجبراً على أن يعود جزائرياً مرتين: إحداهما حين قامت الحرب العالمية الثانية، ولم يعد بإمكانه الاستمرار في موسكو ولا العودة إلى فرنسا، فلم يكن أمامه من سبيل إلاّ الوطن الأم، والثانية حين وجد نفسه في خضم الثورة دون أن يكون له يد في إيجادها، فعمل على أن يكون له تأثير على مسارها، فوقع أسير غربة جديدة هي عدم قدرة العاملين معه على التكيُّف مع أفكاره. فكانت النتيجة الحتمية هي غيابه ذاتاً ومعنىً، لأنه لم يع الجانب العفوي والتلقائي في حركة الثورة، كما أنه لم يجسّد طموحه في هدف واضح المعالم محدّد السمات، وظل في إطار المستقبل غير المرئي، مع أن هذين الأمرين كانا على أتم الوضوح لدى الشخصيات الأخرى بالرغم من كونها أقل منه ثقافة

وأضيق أفقاً.

فقدّور الذي أيقن أن لا فائدة من الالتحاق بالثورة وأن الالتحاق بفرنسا فيه خسارة، لم يبق مسمّراً عند هذه النتيجة. وإنما داعبه الحلم بمستقبل خاص وجزئي. وهو الزواج بزينة. ولم يجهد نفسه في التفكير بأكثر مما تتسع له آماله الشخصية. فتحوّل من التاجر إلى الثائر فالشهيد. وغاب ذاتاً ولم يغب معنى.

حتى بعطوش. أدرك هذه العفوية وتلك التلقائية - ضمناً - فاشترى نفسه، وطهّرها من درن الإثم والخيانة، مشدوداً إلى هدف خاص واضح هو أن لا يعود راعياً للعجول مرة أخرى.

وحمّو الذي لم تقنعه كل الشروح بأهمية السياسة والثورة أدرك الحقيقة من خلال المثل الشعبي السائر (ما يبقى في الوادي غير حجارة) إذن لا مفر من فرز الحجارة الغريبة ونبذها خارج الوادي. هكذا بتلقائية وبساطة ممنياً النفس كذلك أن تدور عجلة الزمان فيصبح أهلاً للزواج بخوخة.

ولا حاجة إلى القول بأن اللاّز نفسه كان قمة التلقائية. لكن دون أن يكون له هدف خاص ودون أن يشغل فكره بهدف غير مرئي، وإنما الانصهار الكلي في بوتقة الحدث الثوري مجذّراً موقفه منذ البدء، دون أن يكون هناك خيط مميّز يفصله عن الصورة الكلية للشعب. فكان إنساناً ورمزاً، شخصا وشعباً، تجسيداً لعضوية المبادرة وتلقائية الحركة.

إن التلقائية والهدف الجزئي الخاص، الواضح المحدَّد، هما التتويج النهائي لإعطاء خيار المغامرة - الموت أو الحلم أو الولادة من جديد - زخماً من الحيوية ينمّيها ويرقى بها إلى آفاق الممكن في إطار الوسائل الفنية التي تخدم هذا الهدف. وهذا هو في تقديري جوهر الحقيقة الفنية، ولب الصدق الفني في رواية اللاّز.

هذه هي «اللاّز»، التي كان العنف الروائي مصاحباً لكل أحداثها، حيث ربط بينها نسيج محكم من القلق الذي يسبق تفجير المواقف الكبيرة. وقد عرف طاهر وطّار كيف يجسّد ملحمة البطولة الجزائرية ضد فرنسا، واستطاع أن يكشف بمهارة عن كل ما يرافق الأعمال الكبيرة من أخطاء جسيمة، ثم تمكّن بريشة الفنان من أن يربط الرواية كلها بمثل شعبي سائر (ما يبقى في الوادي غير حجارة)، تعبيراً عن استمرارية الثورة وديمومتها، وتمكيناً لمبدأ التلقائية الذي دفع شخصية اللاّز والشعب. وتعليلاً لاستمرارية حياة اللاّز نفسه في حلقة الهذيان الذي لا يرقى إلى الجنون وإنما يذوب تدريجياً لينتهي إلى منطق الأشياء وطبيعتها في الحياة.

وفي تقديري، أن دوراً جديداً ينتظر **اللاّز - الشخص** في أعمال قادمة لطاهر وطّار. والكاتب جسَّد الواقعية تجسيداً قوياً، حتى كاد أن يبلغ حد التصفية؛ إذ حكى لنا أحداثاً كأنها تاريخ مع أنها ليست من التاريخ في شيء، وقدَّم لنا نماذج بشرية يخيّل إلينا أنها من الواقع المعاش مع أنها ليست كذلك، ووصف لنا مشاهد دموية مرعبة مع أن العارفين بأسرار الثورة يعلمون أنها لا شيء قياساً إلى ما كان يحدث؛ فريشة الفنان تريد شيئاً آخر، إذ تعتمد على التوافق الزماني والمكاني لنسج حلة الفعل الروائي بتركيز شديد وأسلوب مكين، في رحلة مع الثورة خلال مسيرة التحرير وحتى سنوات الاستقلال الأولى.

الحواشي

من ١ - الى - ٤٤ من الرواية. في صفحات:

٩ - ٢٤ - ١٣٣ - ١١ - ١٢ - ١٢ - ١٢٣ - ١٦٤ - ٢٧ - ٢٠٤ - ١٩ - ٣٥ - ٢١٦ - ١٠٩ - ١٦٩ - ٢٤٧ - ٢٠٣ - ٢٥٢ - ٢٥٧ - ١٠٥ - ٣٠٣ -

٢٢٦ ـ ١٧٠ ـ ٢١٨ ـ ٢٩ ـ ١٨٨ ـ ١٣٠ ـ ١٩١ ـ ١٩٦ ـ ١٣٠ ـ ١٨٩ ـ ١٨٧ ـ ١٨٩ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ٢٦٧ ـ ٤٨ ـ ٢٥ ـ ٤٥ ـ ٤٨ ـ ٤٦ ـ ٢٩ ـ
٤٥ ـ ٤٩

المراجع

١ ـ تجارب في الأدب والنقد. د. شكري عياد. دار الكاتب العربي، ١٩٦٧.

٢ ـ تيار الوعي في الرواية الحديثة، (روبرت همفري. ترجمة محمود الربيعي).

٣ ـ الرؤيا الابداعية، (مجموعة مقالات). ترجمة أسعد حليم. مكتبة نهضة مصر. ١٩٦٦.

٤ ـ Esquisse d'une Psychologie du Cinéma, André Mlraux-1946. -

٥ ـ مجلة «المعرفة» السورية. عدد ١٨٥ ـ تموز ١٩٧٧، مقدمة في الجنس الروائي. خلدون الشمعة.